Mon . 13 June . 2011 ON:17015

الاثنين 11 رجب 1432هـ
13 يونيو 2011م العدد (17015)

الثورة

رؤية اليمن..بين تمثيل الذات وتمثيل الآخر

■ ،، <،، في تصديره لكتاب »رؤية اليمن بين حبشوش وهاليفي« يحدد الاستاذ يحيى علي الإرياني أوجه الاختلاف بين رؤيتين، رؤية اليهودي اليمني حبيم حبشوش ورؤية جوزيف هاليفي اليهودي الفرنسي، ورغم اتفاق الاثنين في الانتماء للديانة اليهودية، إلا أن رؤية هاليفي تقع في سياق تمثيلات الآخر وترتهن لقناعة مسبقة ومنحازة ضد ما هو عربي وإسلامي.

ويبدو انحياز الإرياني واضحاً إلى جانب تقرير حبشوش الذي يجده متوهجاً بالموضوعية والصدق، بينما يقع تقرير هاليفي في الزيف والخداع.

هشام علي

وبعد هذا الحكم القاطع الذي صدر في البداية، يعود يحيى الإرياني ليناقش التقريرين بصورة موضوعية انطلاقاً من ثلاثة أمور:

١- المقابلة الموضوعية بين نسقين مختلفين من الفهم والتوجه نحو تراث الآخر.

٢- اهتمام حبشوش برصد الحياة الاجتماعية وذكر تفاصيلها.

٣- مصداقية البحث ومدى تحققها عند الباحث الأجنبي المتخصص الذي يظل رغم امتلاكه المنهج المعرفي، غريباً عن روح المجتمع، بينما لا يمتلك حبشوش اليمني البسيط أية معرفة بمنهج البحث، إلا أنه قريب من روح المجتمع وبالتالي فهو أكثر قدرة على معرفته.

هذا التقديم يضعنا أمام نسقين ثقافيين مختلفين، الأول ينتمي إلى اليمن والثاني ينتمي إلى الآخر الأجنبي، ولم يكن انتماء الرجلين إلى ديانة واحدة كافياً لردم الاختلاف بين الرؤيتين.

إذن نحن أمام رؤيتين لليمن، واحدة تندرج ضمن تمثيلات الذات والثانية تقع في سياق تمثيلات الآخر، وسوف نعود لمناقشة مفهوم تمثيل في مكان آخر من هذا البحث.

الملاحظة الثانية يمكن أن نضعها في إطار محاورة الانتروبولجيا أو الاستشراق وكيف يمكن أن يتكلم الآخر الصامت الذي هو موضع البحث، هل يندرج حبشوش في تقريره الذي يستعيد رحلته مع هاليفي ضمن آلية الحوار مع الخطاب الاستشراقي، وهل أصبح نصه جزءاً من النص الاستشراقي الذي كتبه هاليفي، أم أن العلاقة بين النصين علاقة وهمية لا تقود إلى الحوار، بل هي تقع في سياق هيمنة الآخر وخطابه الاستشراقي أو الانتروبولوجي.

كان حبشوش يمثل الآخر الصامت طوال الرحلة، إنه لا يتكلم، لا يحاور، بل إنه لا يعرف حقيقة المهمة التي يقوم بها مع هاليفي، لذلك لا نستغرب أن يغفل هاليفي ذكر حبشوش في تقريره، لقد كان دليلاً أعمى، ينسخ نقوشاً وكتابات لا يعرف قراءاتها، يرسم ما يراه على الحجر، إنه جزء من موضوع الرحلة، وليس ذاتاً حية تستطيع أن تشارك في تلك المهمة، لقد وعده هاليفي بأن يعلمه فك تلك الطلاسم والنقوش، لكنه لم يبر بوعده، ولم يكن كافياً أن يكون ذلك اليمني يهودياً ليصبح موضع ثقة ذلك الغريب الذي جاب اليمن من صنعاء إلى نجران مروراً بمارب والجوف، يسأل ويبحث في العادات والجغرافيا والتاريخ، لكنه يحتفظ لنفسه بسر تلك المهمة التي يقوم بها.

هل كان هاليفي جاسوساً يعمل لصالح دولة أوروبية استعمارية أم أنه كان صهيونيا يبحث عن فكر سياسي سامي نقي هو كنز الصهيونية الضائع، كما يقول يحيى الارياني.

مثل هذه الشكوك لحقت بكثير من المستشرقين، وربما ..... لكن تهمه الجاسوسية تنطبق على بعضهم، غير أنه ليس ثمة شك انهم كانوا جزءاً من المشروع الاستعماري الهادف إلى انهم على الشرق.

نستطرد في هذا التمهيد، حتى لا نستبق نتائج القراءة ولكننا نضيف إلى ما سبق في التقديم بعض الأسئلة والشكوك التي تطال شخصية حبشوش، كاتب النص الآخر، الموازي أو المتداخل مع نص هاليفي، إنه ليس يهودياً مهووساً على نحو ما يقول هاليفي في المرة الوحيدة التي يذكره فيها، كذلك فهو ليس شخصاً بسيطاً عادياً كما يقول يحيى الإرياني، لقد تمكن من استعادة تفاصيل رحلته مع هاليفي بعد أكثر من عشرين عاماً وقام بسردها بطريقة رائعة تقترب من السيرة الذاتية وبلغة تمكنت من الجمع بين العربية والعبرية، الأمر الذي جعل نصه وثيقة أدبية تعبر عن ازدواجية لغوية تبين الأندماج في المجتمع ولغته، كما أن استعماله اللهجة الصنعانية في رواية الأحداث جعلت نصه شفاهياً يقترب من الخطاب الحكائي الموجه إلى القارئ وقد ذكرت مترجمة الكتاب السيدة سامية صمبر أهمية التحليل اللغوي لهذا النص الذي كتب بالعربية ولكن بالحروف الأبجدية العبرية، وهي طريقة شائعة لدى اليهود الناطقين بالعربية، كما أن احتفاظه بلهجة أهل صنعاء جعلته أقرب إلى الشفاهية، وهذه الصفات تدفع إلى الاهتمام بلغة السرد إلى جانب موضوع الرحلة.

■ رواية حبشوش أو رؤية حبشوش في مواجهة رؤية هاليفي

يقوم حاييم حبشوش المرتحل في بلاده، بسرد تفاصيل هذه الرحلة التي قام بها مرافقاً للمستشرق الفرنسي هاليفي الذي جاء إلى اليمن في١٨٧٠ م.

بعد ٢٣ عاماً على تلك الرحلة، بدأ حبشوش بكتابة هذا النص، لماذا سكت طوال هذه المدة؟ وما الذي دفعه لاستعادة تلك الرحلة وسردها؟

لقد ظل حبشوش طوال هذه السنوات في انتظار رسائل م هاليفي، تحمل بعض الوفاء بالوعود التي قطعها ليهود اليمن وسلب بها عقولهم حتى ظنوا بالفرج بعد الشدة، ثم خاب رجاهم فنشر حبشوش رسالة مفتوحة في صحيفة هاؤور، في القدس الشريف، موجهة إلى هاليفي تبحث عن أخباره، يشير محقق النص إلى أنه لم يجد هذه الرسالة في الصحيفة المذكورة، وربما أنها لم توجد أبداً ولكنه يستخدمها ليعبر عن خيبته.

لم يظهر اسم حبشوش في نص هاليف عن اليمن رغم أنه قام بدور كبير في تحقيق مهمة هاليفي، حسب روايته الخاصة، وحسب ما هو واقع، إذ لا يمكن للمستكشف الأجنبي أن يتحرك في البلاد ويبحث ويسأل بدون ابن البلد الذي يساعده في هذا العمل، خاصة في ظل مجتمعات تشكك في نوايا الغريب القادم إلى أرضهم، ويذكر حبشوش قصة ذلك اليهودي الذي جاء من بغداد إلى الروضة، قبل زمن قصير من هاليفي، وتسبب في مشاكل لليهود الذين استضافوه.

أصيب حبشوش وجماعته بخيبة أمل بسبب هذا التنكرلهم، لكن غياب ذكر حبشوش من نص هاليفي هو المألوف والمتبع في الخطاب الاستشراقي أو البحث الانتروبولوجي، فغالباً ما يغيب ذكر ابن البلد الذي يشارك الباحث في عمله، إنه يتحول إلى ذلك الآخر الصامت الذي يعد محاوراً غائباً للانتروبولوجي، فالانتروبولوجيا انشئت تاريخياً حسب ادوارد سعيد، على نقطة أصلها في غمار المواجهة الاثنوجرافية بين مراقب أوروبي سيد، وابن بلد غير أوروبي في موقع أدنى ومكان قصي، ويؤكد هاليفي بعمله هذا، أي تغييبه لرفيق رحلته ونكثه للوعود التي قطعها لأهل البلد الذين ساعدوه في تحقيق مهمته، يؤكد الصمت المرعب تجاه المجتمع المراقب أو الشعب الذي بلا تاريخ، وهي السنة السائدة في العمل الاستشراقي أو الانتروبولوجي، فالباحث الغربي يذكر حق المجتمعات المدروسة التي يكتب بلسانها أو نيابة عنها، في قراءة النص المكتوب باسمها.

السؤال الذي ينبغي أن نطرحه، قبل أن نبدأ قراءة نص حبشوش يتعلق بالرؤية أو التمثيل الثقافي فحاييم حبشوش مواطن يمني يكتب عن رحلته في اليمن مع المستشرق الفرنسي هاليفي، والسؤال هنا هل يكتب حبشوش برؤية الآخر وتمثيلاته، أم برؤيته الخاصة، إن نص حبشوش، وإن كان قد كتب بعد أكثر من عشرين عاماً على رحيل هاليفي، إلا أنه واقع تحت هيمنة الإطار الذي وضعه هاليفي في بداية الرحلة، ويخضع لتحكمات الأسئلة التي حددها، وهو يخضع كذلك، لتحكمات الآخر الأجنبي الذي كان دافعاً جديداً لكتابة هذا النص، فالمستشرق النمساوي ادوارد جلازير الذي جاء إلى اليمن، في سياق المهمة ذاتها لها ليفي، هو الذي يحث حبشوش على الكتابة ويوجهه في طريقه الكتابة ولغتها، إن نص حبشوش هو شهادة عن الآخر ومن أجل الآخر أيضاً، هذه هي النقطة الأولى التي تستوقفنا عند قراءة حبشوش، هل نقرأه كنص يمني في وصف اليمن وأصلها، أم نقرأه في إطار النسق الثقافي المختلف الذي حدد سياق العمل وأهدافه؟

إن ظهور بعض الاختلافات في رواية حبشوش، لا يعني كسر صمت الآخر أو أن إمكانية للحوار قد نشأت مع الباحث الغربي، هناك بعض التفاصيل التي يوردها حبشوش، بحكم معرفته بالبلاد وطبائع أهلها إلا أنها لا تعني الخروج عن النص الذي خطط له هالفي، لذلك لا نستطيع أن نعتبر نص حبشوش رواية مختلفة أو رؤية مغايرة لتلك الرؤية القائمة على تمثيل الآخر، التي أنجزها هاليفي خلال هذه الرحلة.

ثمة موضوع آخر يحتاج إلى تحليل وبحث، وإنه يتصل برؤية اليمن، هل يقدم الكاتبان، هاليفي وحبشوش رؤية عن اليمن، أم أنهما يبحثان عن أهل اليمن، وعلى نحو خاص، عن يهود اليمن، لم يصرح هاليفي بحقيقة مهمته في اليمن، لكنه يذكر أنها في جزء منها تتعلق بالآثار وفي الجزء الآخر منها تتعلق بالمعارف الأكثر شمولاً حول شبه الجزيرة العربية، ليس هناك أية إضافة خاصة بهذه المعارف الشاملة لكن ما يتعلق بالآثا ريتجه نحو الفكر السّامي الأصيل الذي يمكن العثور عليه دون اختلاط، في بلاد سبأ، من الواضح أن هاليفي جاء بأسئلة تبحث عن إجابات في هذه المنطقة المعزولة من العالم، والنصوص التي جمعها من نقوش وصور متناثرة في كثير من المواقع، التي جاء ليتأكد من وجودها سوف تفتح الباب أمام المعرفة الغربية أو أمام الاستشراق.

من جهته يذكر حبشوش أن غرضه من الاشتراك في هذه الرحلة كان لمعرفة قبائل من اليهود لا ترضخ لحكم أي أجانب، غير أن حبشوش يضيف أنه قال هذا لهاليفي من قبيل الخدعة، لماذا يخفي حبشوش غايته من الرحلة؟ نحن إذن أمام رفيقين في رحلة، لا يصدقان في تحديد غايتهما منها، إن هاليفي يقدم نصف الحقيقة، ذلك المتعلق بالآثار والنقوش، لكنه يسكت عن النصف الآخر المرتبط بأوضاع اليهود وبالفكر السامي الذي يبحث عن أصوله المجهولة في بلاد سبأ، إنه يحمل رسائل وتوصيات من أغنياء اليهود في عدن، لكنه لا يذكر شيئاً عن أصحابها أو عن طبيعتها، ولعل هذا ما جعل الأستاذ يحيى الارياني يتحدث عن تقريرين كتبهما هاليفي، الأول للوزير الفرنسي والثاني للمؤتمر الصهيوني.

إن النصين موضوع البحث، لا يتعلقان برؤية اليمن بشكل عام، إنما يقدمان رؤية عن اليهود واليهودية في اليمن، هكذا نفهم خيبة هاليفي وإحساسه بالمرارة أمام النقوش التي جمعها، إن شيئاً ضالاً لم يعثر عليه بين النصوص التي جمعها، وأن أصولاً سامية صافية لم تظهر في تلك الكشوف، وهي لن تظهر أبداً، فالفرضية التي جاء يبحث عن تحقيقها، وهي أن الشعب اليهودي كان بانيا لحضارة سبأ، لا تجد لها أي برهان أو دليل أثري، ولا يخفي هاليفي إحساسه بالمرارة والألم كلما عثر بين الخرائب على نقش أو كتابة عربية، بل إنه يذكر في بعض الأحيان، عظمة الآثار والمباني الحميرية القديمة بينما يبدو الجامع الإسلامي هزيلاً أمام ذلك الأثر الحميري العظيم.

ويذكر حبشوش كيف أبدى هاليفي فرحه بوجود مقبرة يهودية في قرية درب الحنشات، ورغم عدم وجود أية نقوش حميرية هناك، إلا أن هاليفي أبدى اهتماماً كبيراً بالمساند اليهودية المكتوبة بالعبرية، وأمر حبشوش بالعودة إلى هناك ونسخها على صورتها دون أي تغيير.

إن متن النص عند حبشوش أو هاليفي، يحتل فيه اليهود موقع الصدارة بينما يظهر وصف الأماكن أو ذكر قبائل العرب على هوامش المتن، فالحديث عن القبائل اليمنية لا يبرز إلا لذكر علاقتها باليهود الذين يجاورونها ،ولكشف تعاملهم معهم، أن نص حبشوش يهتم بوصف أحوال اليهود اليمنيين وعلاقتهم بجيرانهم من اليمنيين المسلمين: هل هم مستضعفون أم أنهم يعاملون معاملة حسنة، كما يشير إلى إن القبائل القوية تنتصر لجيرانها من اليهود، وذلك استناداً إلى العرف القبلي (الجار من مجوّره) ويصف حبشوش حالة الرخاء التي نعم بها اليهود في ظل انتشار الدولة العثمانية في اليمن، (أما من وقت ما انتشر بيرق الدولة العثمانية وانتشرت العساكر الشاهانية في اليمن اسكهوا الناس من الشغل والتجوار، واخوتنا هؤلاء بسعادة الدولة العلية وجيرانهم امنوا واسترحوا زيادة على غيرهم حتى أنهم اكسبوا الحلي والملابس ذلك لحراصتهم وطراستهم، والقبائل قد حسدوهم بسبب ذلك) ص« ٣٩.»

وفي موضع آخر من النص، يذكر حبشوش الخراب الذي أصاب قرية درب الحنشات، القرية التي كان سكانها من اليهود يملكون ثروة عظيمة وكانت لهم ضيعات كثيرة وصناعات متعددة وتجارة واسعة، ولكن هذه القرية خربت حين اخرج اليهود من نواحي اليمن وطردوهم إلى تهامة موزع، ومات أكثرهم في الطريق، وحين عادوا من تهامة لم يعودوا إلى قراهم وتوزعوا في البلاد ومنذ ذلك الحين أصبحت درب الحنشات خراباً، إلى اليوم وكان طرد اليهود وجلوتهم في١٠٨٩ م.

ولا يظهر حكام اليمن وتواريخهم إلا بعلاقتهم باليهود، فالخليفة الناصر الذي حكم صنعاء، لا يتم ذكره إلا بسبب أمره بجمع سفر التوراة التي في الكنايس وحريقها في ميدانها، وكذلك أمره بصلب رؤوس اليهود.

ويذكر حبشوش في نصه، تفاصيل مهمة عن عادات اليهود وصناعاتهم والحرف التي يتقنونها،و أن كان يخلط في بعض الأحيان بين العادات اليمنية العامة ويخصها باليهود، مثل وصفه لعادات الزواج، فهذه العادات التي ذكرها تكاد تكون شائعة في جميع أرياف اليمن ولا تختص بها فئة دون أخرى.

يبدو نص هاليفي أكثر دقة واختصاراً، وهذا يعني أن هاليفي قد اختار ولخص وقائع الرحلة التي قام بها مع حبشوش والقدرة على التلخيص والحذف تعكس القوة والهيمنة المعرفية، فحبشوش يذكر كل ما شاهده في رحلته، حقاً إن هناك تفاصيل مهمة عن المجتمع رأى ذكرها، بينما كان هاليفي مركزاً على مخطط دراسته وعلى المنهج الذي يتبعه في مهمته.

بدأ هاليفي رحلته من عدن، حيث تزود برسالة توصية من تجار اليهود الوجهاء، ولا يتحدث هاليفي عن هذه التوصية ولمن كانت موجهة، وفي صنعاء يطلب توصية من حاخام صنعاء موجهة إلى اليهود المستوطنين عند القبائل، قبل أن يبدأ رحلته متوجها إلى المناطق الشرقية من صنعاء، وقد مال هاليفي في رواية رحلته إلى الاختصار، كما أسلفنا، إلا أنه عند حديثه عن نجران يدخل في تفاصيل كثيرة، على خلاف نص حبشوش، حيث كان حديث حبشوش محدوداً إلى درجة كبيرة ونلاحظ أن نجران وأهلها هي موضع اهتمام هاليفي في هذه الرحلة، ويبدي هاليفي إعجابه بأهالي نجران الطيبين، حيث يتمتع اليهود بينهم بالاحترام والحرية، كما أن ادعاء هاليفي بأنه حاخام من مدينة القدس جعله يحظى باحترام العلماء في المدينة، وغالباً ما كانوا يدعونه إلى منازلهم، (وكنا بعد الانتهاء من الطعام نتناقش في مسائل تاريخية وجغرافية وبالأخص في علم ما وراء الطبيعة، وإلى جانب هذا، فإن تعرفي على القاضي «محمد بن لغة» القاطن في «قرية القابل» قد كان ثميناً للغاية بالنسبة لي، فلقد وجدته متضلعاً في الأدب العربي وارسطاطاليسيا متحمساً، ولما كان واحداً من مستشاري رئيس الدولة المعروف بالمكرمي، والذي يسكن في «بدر» قد زودني بمعلومات موثوقة عن موارد البلاد وعن العلاقات التجارية التي يقيمها الحاكم مع الشعوب المجاورة).

ويتحدث هاليفي عن اكتشافه خرائب (نجرا) حاضرة المنطقة، وهي مدينة الأخدود التي يرد ذكرها في القرآن الكريم، ويقول هاليفي إن سكان هذا المدينة لا يعرفون شيئاً من الإداعات حول وحشية الملك اليهودي الحميري (ذونواس) الذي بحسب ما رواه بعض كتاب العصور الوسطى، قد ألقى عشرين ألفاً من المسيحيين في حفر مضطرمة بالنار، هل يعتبر هذا النسيان نوعاً من الشك في وقوع هذه الحادثة، وهل يحتفظ الناس بذاكرة تاريخية تمتد أكثر من ألفي عام؟!

ويضيف هاليفي :(أما التقاليد الشعبية فهي في غاية التسامح مع اليهود بحسب ما يقوله علماء نجران لا يوجد في العالم سوى ذريتين شريفتين الأولى ذريتهم، أي ذرية إسماعيل الحقيقيين، والثانية متمثلة بذرية (إسحاق) أي الشعب اليهودي، وفضلاً عن ذلك، لا اليهودية ولا المسيحية كانت قد تركت أثراً لوجودها في نجران، أما بعض النقوش القليلة التي وجدتها فهي كلها تقريباً من مدينة (نجرا) ولها طاب وثني، في حين أن المكان الوحيد الذي يمكن أن يكون له بعض الأهمية للتاريخ الكنسي هو الجامع الواقع شرقي آثار المدينة القديمة).

ويواصل هاليفي وصف رحلته إلى الشمال من نجران حيث أوشك على الوصول إلى بلد (الدواسر) ا لواقعة قرب الرياض، العاصمة الحالية للقائد المشهور (ابن سعود)، ويذكر هاليفي أنه تعرف على أشخاص من الدواسر في نجران، (وقد تعجبت أنني لم أسمعهم يتكلمون عن فرقة الوهابيين على أنها من مذهب مختلف عن بقية المذاهب الإسلامية بحسب معلوماتي، أن الوهابيين الشهيرين بعيدين كل البعض عن أن يكونوا بروستانتيي الإسلام، وإنما ينتمون إلى المذهب الاورثوذكسي، أي الشافعي الذي يعتنقه عدد كبير من القبائل في نجران، مع أن العقيدة السائدة هي الحنفية، وبشكل عام فإن العرب يطلقون أحكاماً خاطئة على العقائد الدينية المخالفة لعقيدتهم، فيميلون دائماً إلى اعتبارأي اختلاف بسيط في المذهب ديانة مستقلة، ومهما يكن فان أهل نجران يعتبرون في شبه الجزيرة العربية طائفة خاصة تمارس طقوساً سرية، فاحشة ومستوحاة من المسيحية».

ويضيف هاليفي أنه عرض أفكاره الوهابية على السيد جر مني الذي كان يقوم بمهمة في نجد ويشتغل منصب قنصل فرنسا في عدن، وقد تطابقت أفكار الإثنين بشأن هذه الحركة المناهضة للأتراك في جزيرة العرب.

نلاحظ أن حبشوش لم يتحدث كثيراً عن محادثات هاليفي في نجران، مع العلماء والأعيان، كما أنه لم يذكر شيئاً عن الوهابية التي جذبت اهتمام هاليفي وهو يرحل شمالاً في اتجاه وادي الدواسر، إلا أننا نجد اختلافاً في وصف ديانة أهل نجران، حبشوش يقول إن القبائل يقرون أن بلادهم قد تهودت وتنصرت وأن بعض ضيعاتها لا تزال تحمل أسماء يهودية، بينما قال هاليفي إنه لم يجد أي أثر للديانة اليهودية أو المسيحية.

ويتفق حبشوش مع عاليفي في أن مذهب أهل نجران مختلف عن مذاهب قبائل اليمن، ويقول «وأنا رأيت عند قاضيهم واسمه بن لغة دعاوى ونزاعات على مذهب الداودي والسليماني..».

خاتمة

١) إن قراءة مقارنة لوصف الرحلة في نص حبشوش ونص هاليفي تظهر اختلافاً في طريقة السرد، حيث يهتم حبشوش بالتفاصيل الدقيقة عن العادات والتقاليد، وعن طريقة عيش يهود اليمن وأعمالهم، ويكاد نصه أن يشكل وثيقة اثنوغرافية تاريخية، بينما يخلو نص هاليفي من وصف المجتمع والتقاليد.

٢) يخلو نص هاليفي من أيه إشارات إلى المرأة في اليمن، ويظهر المجتمع اليمني ذكورياً خالصاً، ويبدو الأمر كأن هاليفي يتجنب عمداً أي حديث عن المرأة، وذلك خلافاً لتقاليد الكتابة الاستشراقية، حيث تعتبر المرأة الشرقية ثيمة رئيسية في وصف الشرق.

٣) بخلاف هاليفي، تظهر المرأة في نص حبشوش ويغلب عليها الصفات السائدة في الخطاب الاستشراقي، وتبدو النساء في نص حبشوش كأنهن خارجات من كتاب ألف ليلة وليلة، وتغلب صفات العري والخيانة على نساء حبشوش.

٤) رؤية اليمن أو تمثيل اليمن، هذا التمثيل الثقافي للآخر ينطوي على شكل من الممارسة السلطوية، بحسب تحليل ميشيل فوكو للتمثيل، وبعده إدوار سعيد، كيف يمكن قراءة نص هاليفي والنص الموازي لحبشوش وفقاً لمفهوم التمثيل الثقافي وما يستتبعه من هيمنة وسلطة؟ هل يبدو نص هاليفي شكلاً من الخطاب الاستشراقي الغربي الذي أسس لمعرفة عامة عن الشرق جمعت بين التاريخ والسلطة والدين والانثربولوجيا وغيرها من المعارف المتعددة، ومن هنا يبدو نص هاليفي ناقصاً أو غير مكتمل، إنه بحث ينتظر استئنافه، النقوش التي جمعها تحتاج إلى قارئ يفك رموزها، والمعلومات التي جمعها يمكن أن تستخدم في صنع السياسة وإعادة تأويل التمثيلات الثقافية وعلاقتها بصيرورة السياسة للهيمنة..

ولهذا ظهرت الشكوك في مهمة هليفي، على نحو ما رأينا في مقدمة الكتاب التي وضعها الأستاذ يحيى الارياني.

٥) النص الذي كتبه حبشوش بعد أكثر من عشرين عاماً على الرحلة يستدعي تساؤلات عديدة، أولها يتعلق بالذاكرة العجيبة التي حفظت كل هذه الأحداث والتفاصيل طوال هذه السنوات، وفي بيئة صعبة تحكم بالنسيان على كثير من الأمور.

وقد أفاد محقق النص، أن حبشوش لم يكن يحمل أوراقاً أو دفاتر ولم يكن يسجل ملاحظات خلال الرحلة.

نفترض أن حبشوش احتفظ بوقائع الرحلة في ذاكرته، لأنها كانت حدثاً متميزاً في حياته، ولذلك ظل يحتفظ بذكراها على هذا النحو العجيب.

والسؤال الأخير يتعلق بطريقة الكتابة، من الواضح أن هاليفي لم يعلم حبشوش شيئاً، حتى أن قراءة النقوش التي وعده بتعلمها، لم يقم بها، كما أننا نجد فروقاً في النصين، هذه الفروق تكشف اختلافاً في بعض الاهتمامات بين الرجلين حقاً انهما زارا الأماكن نفسها وقابلا نفس المشكلات خلال الرحلة، لكن الرؤية اختلفت من واحد إلى آخر، ماهو موحد في النصين، هو ذكر مواقع النقوش والآثار، مع اختلاف واضح في العمل ، ففي حين ينسب حبشوش هذا العمل إلى نفسه ينكر هاليفي هذه الحقيقة وينفي حضور حبشوش معه إلا كدليل يهودي مهووس.

ما الذي حكم اسلوب الكتابة ومنهجها في نص حبشوش، هل هناك تأثير للمستشرق النمساوي جلازر يتجاوز اسلوب الكتابة ونقلها.

هل نستطيع القول إن حبشوش كتب نصه بنفسه وبطريقة سردية تقترب من أسلوب الرحلة العربية التي اشتهر بها ابن بطوطة يذكر حبشوش انتماءه لهذا التراث العربي «الحمد لله نحن وارثين الكتب وأيضاً لنا جهد في بعض تفاسيرها بمعاونة اللغة العربية التي نتصرف بها في اليمن»، وهو يظهر معرفة بالتاريخ وأخبار المسلمين، مثل حديثه عن القرامطة وجهل الناس بأخبارهم.

وفي حين كان هاليفي قادراً على التحكم في اختيار ما يكتب عنه خلال الرحلة، نجد حبشوش يترك نصه مفتوحاً للسرد، فهو ينقل كل ما رآه، وربما يضيف بعض المعلومات التاريخية أو الاجتماعية التي يجدها مفيدة للنص ومضيئة لبعض خفاياه، ورغم أنه يحرص على حضور هاليفي في نصه، باعتباره «منير عقلي منبه غفلتي شيخ علمي كاشف حجاب ضلال فكري»، وهو يروي بعض الحوادث والمناقشات التي تبين حكمة هاليفي وعلمه، لكنها ليست كافية لنعته بتلك الأوصاف، ويبدو أن حبشوش كان يراقب طريقة تفكير هاليفي وأسلوبه في معالجة الأمور، وقد كان معجباً به ولذلك كان له تلك الصفات.

٦) هل يقدم نص حبشوش وهاليفي صورة لليمن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، هل كانت النقوش والآثار هي محرك الرحلة ودافعها، هل ثمة نص آخر غائب، لم يكشف عنه هاليفي وأنه تخفى تحت ستار عالم النقوش والآثار ليكتب ذلك النص.

نلاحظ أن رحلة هاليفي ارتبطت بعدد من الأحداث في اليمن والجزيرة العربية، وأن حركة للرحالة والدبلوماسيين والجواسيس والمغامرين كانت لا تهدأ، وأن لاعبين كثيرين كانوا ينتظرون بداية القرن العشرين وسقوط الدولة العثمانية، ليعلنوا حضورهم في المنطقة.

ربما تكون هذه الاحتمالات ممكنة، كلها أو بعضها إلا أننا لا نستطيع أن نقرأ ما هو خارج النص أو ما ينضوي في سياقة.

وتظل رؤية اليمن غائبة عن هذا الكتاب رغم أن المترجمة قد اختارته عنوناً لرحلة المستشرق الفرنسي هاليفي وتابعه اليمني حبشوش.

٧) بقيت ملاحظة أخيرة لا بد من ذكرها، وهي وحدها بحاجة إلى إعادة تفكير وتأمل أننا أمام نصين مختلفين لمستشرق فرنسي ولرجل يمني من عامة الناس والرجلان يدينان بالديانة اليهودية وربما كان هاليفي علمانياً مثل بني جنسه من الفرنسيين، والنصان يعودان إلى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر، أي أنهما مكتوبان قبل أن تعلن الحركة الصهيونية عن نفسها وقبل أن تظهر في أفق التاريخ الحديث دولة اسرائيل واحتلال فلسطين، وبالرغم من هذه المقدمات، فإن أيه قراءة للنصين لا تكون بمنأى عن هذه المسألة لماذا؟ ربما لأن المشروع الاستعماري للبلاد العربية كان آخذاً في الزحف، بل إنه وصل إلى مدينة عدن وأخذ يقرع بوابات اليمن من اتجاهات متعددة، ومع ذلك لا نسطيع أن نقدم إجابة قاطعة على هذا السؤال، إلا أنه أخذ يلح على بعد أن فرغت من قراءة الكتاب، لعل طريقة حبشوش في السرد وتوجهه نحو قارئ آخر خارجي، قد يكون النمساوي غلاسر أو شخصاً آخر، اجنبياً، هو ما فرض هذه المسافة بين النص وقارئه اليمني، وهو كذلك ما فرض هذا السؤال عن الهوية والانتماء : الهوية اليمنية لحبشوش أم الهوية الدينية؟